

ملخص

حفل الأدب الشعبي الشفهي والمدون بالكثير من الأخبار والأحاديث، والحكايات، والأشعار عن تلك الفئة من المتمردين الشعبيين المعروفين بالشُّطَّار والعَيَّارين، حيث شاعت تسميتهم علي هذا النحو في التراث العربي. ويتناول المقال سيرة هؤلاء المتمردين من الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العباسية، وظهور أول ذكر لهم فيما بين أواخر القرن الثاني الهجري، وأواخر القرن السابع الميلادي، ثم ظهور حركة المتطوعة ضد الشُّطَّار والعَيَّارين، وتطور حركة الشُّطَّار والعَيَّارين في عصر الخلفاء العظام، وفي عصر النفوذ الأجنبي، وفي العصر السلجوقي.

مُقدِّمة: التعريف بالشُّطَّار والعَيَّارين

الشَّاطِرُ: هو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً، وقد شَطَرَ يَشْطُرُ شَطَّارَةً وشَطَرَ أيضاً من باب الظُّرف،^(١) والعَيَّارُ، كَشَدَّادٍ، وهو الرجل الكثير الميء والذهاب في الأرض، وقيل: هو الذكي الكثير التطواف والحركة، وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدحُ بالعيار وتذمُّ به، ويقال: غُلِّمَ عَيَّارٌ، نشيط في المعاصي، وغلام عَيَّارٌ: نشيطٌ في طاعة الله عزَّ وجلَّ. وربما سعي الأسد بالعَيَّار لتردده ومجيئه وذهابه في طلب الصيد، وقال أوس بن حجر:

لَيْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَزْدِيِّ هَيْبَةً كَالْمَرْبِاني عَيَّارٍ بِأَوْصَالِ

وقال ابن بَرِّي: أي يذهب بأوصال الرجال إلى أَجْمَتِهِ، وروى باللام عَيَّالٌ وهو المذكور في موضعه، وأنشد الجواهري:

لَمَّا رَأَيْتُ أَبَا عَمْرٍو رَزَمْتُ لَهُ مَنِي كَمَا رَزَمَ الْعَيَّارُ فِي الْغُرْفِ^(٢)

وقيل هو الماهر المجتهد وهو من يجرح الثياب ويشطُرُها ليأخذ منها المال، فهو اللص أو قاطع الطريق.^(٣) نستنتج من ذلك: أن الشَّاطِر هو الذي شَطَرَ على أهله وانفصل عنهم وتركهم مُراغماً أو مخالفاً وأعياهم خبثاً ومكرًا، وقول الناس فلان شاطرٌ معناه أنه أخذ في غير الاستواء، وقيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء، ونستنتج من ذلك أن لفظ العيار نعتٌ للرجل الفتي السن النشيط في المعاصي أو في طاعة الله أو الذي يضارع الأسد شجاعة وجسارة وجسارة وإقداماً، وهو بذلك المعنى الاصطلاحي دخل التاريخ السياسي والاجتماعي والديني في الإسلام، ولذلك فإن معاصي الشطار والعيارين التي ألمعت إليها المعاجم اللغوية وأثبتتها المصادر التاريخية والأدبية تنحصر في التفتن في السرقة وقطع الطريق أي في التلصص القائم على الفتوة كأسلوب عنيف لمقاومة القهر الاجتماعي والسياسي بالقوة وبقيت لهم مع ذلك أخلاق الفتيان والفرسان من المروءة والشهامة والشجاعة والتجدة والجود، وحفظ الجوار والصبر على الأذى مهما بلغت شدته.^(٤)

والشُّطَّار والعَيَّارين هُم عبارة عن تكتل اجتماعي ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة، وبدا واضحاً منذ أحداث الصراع بين الخليفين الأمين والمأمون، واستمر هذا الأثر يتصاعد في فترات الضعف السياسي، حتى شكل هؤلاء جزءاً مهماً من الأحداث التاريخية لمدينة بغداد، في العصر العباسي امتد إلى القرن السادس



الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العباسية

حسين حمد حسين الفقيه

ماجستير في التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – جامعة قاربونس
بنغازي – ليبيا



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسين حمد حسين الفقيه، الشُّطَّار والعَيَّارين في الدولة العباسية- دورية كان التاريخية- العدد الخامس عشر: مارس ٢٠١٢. ص ١١٦-١٢١.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

وجند المأمون، ولم تُحسم المعركة إلا بعد أربعة أشهر من الحصار، مما يدل على صلابة وقوة هؤلاء العراة، وأنهم خاضوا حرباً حقيقية كانت تدور من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، حتى سُميت هذه الوقعات باسم الدروب.^(١٢) واشتدت تلك الحرب الأهلية وكثر القتل في الشوارع، يُنادي هذا للأمين وينادي الآخر للمأمون، ويقتل بعضهم بعضاً، وانتهت الدُور وخربت بغداد من كلا الجانبين المتقاتلين، فقد تسابق كلا الفريقين إلى النهب مرة بامر طاهر، ومرة بامر القائد حاتم بن الصقر.^(١٣)

وتجدر الإشارة إلى: أن قادة المأمون قد شهدوا لهؤلاء العراة بالبسالة في القتال والبطولة، ويتبين ذلك من خلال رواية الطبري عن أحد القادة الذين كانوا مع طاهر: "وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا جُنّة تقيم، فأوتر قوسه وتقدم، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي يده بارية مُقَيَّرَةٌ، وتحت أبطه مخلاة فيها حجارة، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيَّارُ، فوقع في باريته أو قريباً منه، فيأخذه فيجعله في موضع من باريته، قد هيأه لذلك، وجعله شبيهاً بالجُعبة، وجعل كلما وقع سهم أخذه وصاح: دانق - أي ثمن النشابة دانق قد أحرزهُ - ولم يزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى أنفذ الخراساني سهامه، ثم حمل على العيَّار ليضربه بسيفه، فأخرج من مخلاته حجراً، فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ عينه، ثم ثناه بأخر، فكاد يصصره عن فرسه لولا تحاميه، وكَرَّ راجعاً وهو يقول: "ليس هؤلاء بئس، قال: فحَدَّثْتُ أن طاهرًا حَدَّثَ بحديثه فاستضحك وأعفى الخراساني من الخروج إلى الحرب".^(١٤)

وقد ذكر الشعراء هذه الشجاعة التي تميز بها هؤلاء الشُّطَار، وفي ذلك يقول الشاعر أبو يعقوب الخريبي:

أخرجت الحرب من سواقطها آساد غيل غلباً تُساورها
من البواري تراسها ومن الخوص إذا استلأمت مغافرها^(١٥)

وقال آخر:

خَرَجَتْ هذه الحروب رجالاً لا لقحطان لا ولا لنزار

معشرفي جواشن الصُوف يغدون إلى الحرب كالبليوث الضواري
ليسوا يدرون ما الفرار إذا ما الأبطال عاذوا من الفنا بفرار^(١٦)

هذا وقد رمى طاهر بن الحسين الخراساني، بالسهم الأخير في جعبته ليحسم المعارك لصالح المأمون، فقطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرها من الطرق فَعَلَّتِ الأسعار في معسكر الأميين وَقَلَّتِ الأقوات وضاعت النفوس واشتد الجوع، ورغم ذلك حارب العراة بشجاعة فائقة، حتى أن القتل كان أكثر في أصحاب طاهر وحاول الأميين وقد اشتد به الحال والحصار أن يفي بالتزامات هؤلاء العراة، فأمر بجباية الأموال من الأغنياء والتجار مما دفع هؤلاء للخيانة ومكاتبة طاهر، ورغم أن العراة خسروا في إحدى المعارك نحو عشرة آلاف إلا أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة منقطعة النظير.^(١٧)

للهجرة، فاختلف المؤرخين في مواقفهم من العيارين فمنهم من وصفهم باللصوصية مستنداً إلى أحداث السرقة والخرائن والفتن التي سببوها، وآخرين يجدونهم طائفة ظهرت بسبب التباين الاقتصادي وأن حركتهم موجبة ضد التجار وأهل اليسار.^(١٨) والقصد أن العيارين وإخوانهم الشُّطَار صَعَالِيك من جهة، ودراويش من جهة أخرى، والصَعَالِيك كلمة عربية أصلها صُعْلُوك، وهو الفقير المُعْيَرُ الفاتك، وقد اختصَّ بكلمة الصَعَالِيك ذُوبان العرب ولصوصها في الجاهلية ومن هؤلاء الخُلعاء والأعرية والفقراء وغيرهم، وانسلخت كلمة شاطر عن معناها الاصطلاحي كصعلوك أو درويش وأصبحت تُطلق في مجال الإعجاب والإطراء.^(١٩)

ظهور الشُّطَار والعَيَّارين

ظهر أول ذكر لهم فيما بين أواخر القرن الثاني الهجري، وأواخر القرن السابع الميلادي، في فارس والعراق، ثم بعد ذلك في شمال الأردن، وعلى غرارهم نهجت الأحداث بالشام والراندان بالأناضول، ثم تلاهم الحرافيش والزعار والعيَّاق والفتوات بمصر، وأول ذكر للشُّطَار والعيارين في المصادر العربية: يقع في حوادث شهر ذي الحجة سنة (١٩٦ هـ / ٨١٢ م) أثناء حصار أبي الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب الخراساني، لبغداد بأمر من أبي العباس عبد الله المأمون ابن أبي جعفر هارون الرشيد، المشاقق لأخيه الخليفة أبي موسى محمد الأمين، وآخر ذكر لهم يقع في خلافة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله (٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م) خاتم خلفاء بني العباس ببغداد.^(٢٠)

وقد جرى ظهور الشُّطَار والعَيَّارين على المسرح السياسي، عندما تحطمت الجيوش النظامية للأميين أمام جيوش أخيه المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الخراساني.^(٢١) وكان الأميين قد استعان في حروبه بالشُّطَار والعَيَّارين الذين أطلقهم من سجون بغداد، ليدافعوا عن مدينتهم وخليفتهم، وتكوَّنَ له بذلك جيشاً بلغ المائة ألف، وقد وُصِفَ هذا الجيش بأنه من الرِّعَاعُ، وإن كان يبدو أنه تم تدريبه وتنظيمه في فترة قياسية بحيث صار يشبه الجيش النظامي، فقد كان على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقيب قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، وكان هؤلاء القوم يحاربون وهم عراة، وقد شدوا أوساطهم بالتباين والزناير، واتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقاً من الخوص والبواري قد قُيِّرَتْ وحُشِيت بالرمل والحصى، وقد جعلوا في أعناقهم الجلال والصوف الأحمر والأصفر.^(٢٢) وهم في تركيبة الجيش العباسي، يُطلق عليهم تسمية أخرى، وهي رُماة الأحجار من المخالي،^(٢٣) وقد ذكرهم ابن الأثير في حوادث سنة (١٩٧ هـ / ٨١٢ م) حيث قال: "وَدَلَّ الأجناد - يعني جند الأميين - وضعفوا عن القتال إلا باعة الطريق، والعراة، وأهل السجون والأوباش والطارئين وأهل السوق، فكانوا يهبون أموال الناس".^(٢٤)

وكانت تلك الحرب إيذاناً بخراب بغداد التي لم تُصَب بحرب - منذ أنشأها المنصور - بأسوأ منها، فقد دارت المعارك بين العُراة،

لظهور مرة ثانية عندما رأوا الأمور لا تسير وفق صالح الطبقات الفقيرة.^(٢٥)

نظور حركة الشطار والعيارين

أولاً: في عصر الخلفاء العظام

ترجع البدايات الأولى لظهور الشُّطَّار والعيارين إلى أيام الخليفين المهدي (١٥٨هـ - ١٦٩هـ) وهارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ)، حيث الإشارة إليهم باسم الصَّعاليك والدُّعَّار والنص على انتشارهم ببلاد الجبل (عراق العجم) التي كانت تروج آنذاك بجماعات الخُرْمية المُخَمَّرة، ولكف عادية الصعاليك والدُّعَّار بنى المهدي مدينة (سيسر) بتخوم همدان على يدي سلمان بن قيراط وسلام الطيفوري، ولما شعث الصعاليك عمارتها في خلافة الرشيد أعاد بنائها وتحصينها.^(٢٦)

ورغم كثرة الصَّعاليك والعيارين في عصر الرشيد، إلا أنهم كانوا لا يشكلون مصدر خطر يهدد سلطة الدولة، وإذا كان المهدي والرشيد قد تمكنا من الحد من امتداد موجة العيارية والشُّطَّارة إلى بغداد، فإن الأميين سمح بذلك،^(٢٧) ولما حاول ابن عائشة - وهو من أنصار عم المأمون إبراهيم بن المهدي - تدبير مؤامرة في سنة (٢١٠هـ / ٨٢٥ م) ترمي إلى خلع المأمون وإعادة عمه للخلافة، اكتشف تلك المؤامرة وأحبطها، وألقى بمديرها في غياهب سجن المطبق، وكان من بينهم رجلان من الشطار، يقال لأحدهم (أبو مسمار) والآخر (عمار)، وفي عصر المعتصم وإلى آخر العصر العباسي الأول، لا نسمع شيئاً عن الشطار والعيارين، مما يوحي بتماسك الدولة وثبات سلطتها.^(٢٨)

ثانياً: في عصر النفوذ الأجنبي

وتوالى الأحداث والفتن التي سببها العيارين في ظل السيطرة الأجنبية، ففي سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٣م) ظهر العيار (ابن حمدي) الذي كان من عتاة العيارين^(٢٩) والذي أعيا السلطان أمره، فخلع عليه أمير الأمراء ابن شيرزاد وأمنته، ووافق على أن يسدد له في كل شهر (١٥٠٠٠ دينار) مما يسرقه هو وأصحابه، فكان يستوفيه ويأخذ البراءات كإيصالات رسمية.^(٣٠) واستعان ابن شيرزاد (أمير الأمراء) بالشطار والعيارين، على حرب (معز الدولة) فكان يركب الماء، وهم معه ويقال الديلم، ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين، فجنح كلاهما للمصالحة، واستقر الصلح بينهما في سنة (٣٣٥هـ / ٩٤٦م)، وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بني بويه منذ الوهلة الأولى.^(٣١)

وفي سنة (٣٤٨هـ / ٩٥٩م) كان العامة والعيارون سبباً في امتداد حالة الحرب بين الناس حتى قُتل كثير من الخلق واحترق من البلد الكثير.^(٣٢) وفي سنة (٣٦١هـ / ٩٧١م) استغل الشطار والعيارين موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية والشامية، حيث شعروا بتجميع هذه السلطة لحركة الجهاد ضد البيزنطيين ففجروا الموقف ضد السلطة

وامتلك الشُّطَّار والعيارين، قدرات مثالية عالية، أسهمت في تحقيق الانتصارات على جيوش المأمون، رغم أنهم لا يملكون أي طموح نحو الاستيلاء على الوزارة أو السلطة، ويبدو أن فكرة الدفاع عن بغداد ضد الهجوم الأجنبي الخراساني، كانت الوسيلة التحريضية التي اعتمدها الأميين، من أجل استغلال الإمكانيات البشرية والدفاعية التي يتمتع بها الشطار والعيارين.^(٣٣)

ظهور حركة المنطوعة ضد الشُّطَّار والعيارين

كانت بغداد خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها، فنتج عن ذلك الفساد الشديد، ففساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق، فأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطريق، وكانوا يسألون الرجل أن يُقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال، وغير ذلك، ولا سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه، وكانوا يجوبون المارة في الطريق والسفن ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم.^(٣٤) أما الفقراء وذوو الحاجات فقد ضاقت عليهم بغداد بما رحبت، ولم يعودوا يستطيعون العيش فيها.^(٣٥)

ورأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم، فقام صلحاء كل ريش وكل درب، فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما في الدرب الفاسق والفساقان إلى العشرة وقد غلبوكم، وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق.^(٣٦) يقول الطبري: "فقام رجل من ناحية طريق الأنبار يقال له خالد بن دريوش، فدعا جيرانه وأهل بيته وأهل محلته على أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك".^(٣٧) وشدَّ خالد بن دريوش على من يليه من الفساق والشطار، فمنعهم مما كانوا يصنعونه، فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وأخذ بعضهم فزبرهم وجبسهم ورفعهم إلى السلطان، وكان يطالب بالإصلاح في حدود الطاعة للدولة ولكنه لا يثور على السلطان.^(٣٨)

ثم قام من بعده رجل آخر، اسمه سهل بن سلامة الأنصاري، فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلق مصحفاً في عنقه ثم طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها، ومنع كل من يخفر أو يجبي المارة وقال: لا خفارة في الإسلام، والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين، فيقول له: بستانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء، ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا، وإذا كان مقصد الدريوش معاونه السلطان، فإن سهل كان ذا أطماع حيث قال: "إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أو سوقة، فكثرت أتباعه حتى خافه السلطان والولاة".^(٣٩) وبعد القضاء على هذه الحركات المتمردة من قبل الشطار والعيارين، لم تقم لهم قائمة إلا في وقت متأخر حيث استجمعوا قواهم وجندوا جهودهم، وعادوا

البويهية حتى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة (٣٦٢هـ / ٩٧٢م) وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث إذا تحركوا ملكوا.^(٣٣)

ويمكن تفسير زيادة عمليات النهب والسلب التي اقترفتها العيارين في سنة (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) كانت بسبب ندرة الطعام والأقوات في بغداد خلال الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم (الحمدايون) في الموصل، وأعراب بني أسد وشيخان تنفيذاً لطلب (ابن بختيار بن معز الدولة) الذي كان قد استعان بابن عمه (عضد الدولة) في قتال الأتراك وقائدهم (أفتكين)، أما العيارين فقد انحازوا إلى جانب الأتراك.^(٣٤)

وذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٣٦٤هـ / ٩٧٤م): "فما في المحرم أوقع العيارون ببغداد حريقاً من الخشابين إلى باب الصغير، فاحترق أكثر السوق، وهلك شيء كثير، واستفحل أمر العيارين ببغداد حتى ركبوا الجند وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الأمور، وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدروب، وكان فهم أسود يقال له (الرَّيْد) كان يأوي قنطرة الزبد وكان يشحذ وهو عريان، ولما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ بالسيف فطلب الأسود سيفاً ونهب وأغار".^(٣٥) وبرز من قوادهم في هذه السنة (ابن كبرويه، وأبو الدور، وأبو الذباب، وأسد الزبد - المذكور آنفاً - وأبو الأرضه، وأبو النوائح)، ونشطت حركة الشطار والعيارين خلال الأعوام من سنة (٣٧٩هـ - ٣٨٠هـ / ٩٨٩م - ٩٩٠م) في بغداد، وتحدا سلطة البويهيين جهاراً نهائياً، وقتلوا من قاومهم، وتواترت سطوتهم وعملياتهم التي عُرفت في ذلك الوقت بالـ (العملات والكبسات).^(٣٦)

واضمحل أمر الشطار والعيارين بفعل الشدة في سنة (٣٨١هـ / ٩٩١م) فاطمئن الناس وقُبض على أحد زعمائهم وهو (ابن الجومرد).^(٣٧) وفي حوادث سنة (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) يقول ابن الأثير: "وفيها اشتد أمر العيارين ببغداد ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المحال ثم اصطلحوا".^(٣٨) وفي نفس السنة ثار الشطار والعيارين بزعماء كبيرهم (عزيز الباصري) وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب وعندما شعر البويهيين بخطورة هذه الحركة جندوا طاقاتهم لقمعها، وتصدوا لها بقوة، ويبدو أن هذا الأمر دفع العيارين إلى تجميد نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم، وفي سنة (٣٩٠هـ / ١٠٠٢م) استفاض سعار النهب، والحرق والقتل، وتدارك (بهاء الدولة) الموقف، فاستناب على العراق (أبا علي الحسن بن جعفر) أستاذ (هرمز بن الحسن) الملقب بعميد الجيوش، فأصلح الأمور وقمع المفسدين، واستطاع بذلك أن يشل نشاط الشطار والعيارين بشكل مؤقت.^(٣٩) وفي نفس الوقت تطاول أمر العيارين على جماعة من الكبراء وهم في طريقهم على النهر، لاستقبال بعض الملوك فطلع عليهم للصوص ورموهم بالحراقات وشتموهم.^(٤٠)

واستغل الشطار والعيارين الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم، في مواصلة نشاطهم، وذلك عندما بدأت علائم الضعف على السيطرة البويهية في بغداد سنة (٤٠٨هـ / ١٠١٧م) فقاموا بمصادرة

كثير من الأموال العائدة للبويهيين وأعوانهم، وازداد نشاطهم بشكل واضح في سنة (٤١٦هـ / ١٠٢٥م) إذ استهانوا بالسلطة البويهية، وبالفوا في التحدي السافر والاستهانة حتى أنهم كانوا يسرون ليلاً بالمشاعل والشموع، وبلغ من تحديهم أنهم نهبوا خزائن الحاكم البويهي (مشرف الدولة).^(٤١) وفي سنة (٤٠٩هـ / ١٠١٨م) واجه العيارون معاملة قاسية من (أبي محمد بن سهلان) الذي عينه سلطان الدولة (داليا) على العراق فنجح في تشتيتهم ونفى جزءاً منهم.^(٤٢)

وقوي أمر العيارين في عهد (جلال الدولة أبي طاهر المعز بن بهاء الدولة) سنة (٤١٦هـ / ١٠٢٥م) ولاسيما في النصف الأول من إمارته وترأسهم ربما للمرة الأولى رجل عربي فائق من قبيلة (تميم) المفدية النازلة بالبصرة، اسمه (أبو علي البرجي) الذي عُرف بشدته وشدة أصحابه، وكان على ما يظهر يحمل لقب متقدم (درجة قائد) ورغم ما يُحكى عن سطوة هذا القائد وفتكاته، إلا أنه كان مع هذا فيه فتوة، وله مرؤة، فلم يتعرض لامرأة، ولا إلى من يستسلم إليه وإن كان قد أسرف في نهب الأموال.^(٤٣)

وفي ليلة السبت سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م) كبس جماعة من العيارين يزيدون على خمسين رجلاً على أناس بنهر الدجاج فقتلوهم وأحرقوا الدار ولم يتجاسر أحد من الجيران أن يُنذِرهم خوفاً منهم، وفي هذا الشهر كثرت (العملات والكبسات) في الجانب الشرقي من العيار المعروف بالبرجي (متقدم العيارين) ووصل إلى عدة مخازن ومنازل وأخذ منها شيئاً كثيراً واستمر ذلك ولقي الناس منه أمراً عظيماً.^(٤٤) وتساعد خطر العيارين بقيادة (أبي يعلى الموصلية) الذي اتخذ مقراً له خارج بغداد، فهاجم رجالات الشرطة في بغداد، وقتل بعضهم، وهو يحمل السيوف المسلوكة مع رجاله، فاضطر رجال الجيش البويهي إلى نقل خيولهم إلى دورهم، كما نقل الحاكم البويهي (جلال الدولة) دوابه إلى داخل دار المملكة، وظل أبي يعلى هذا خارجاً على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين كان يشن خلالها الهجمات، وفي إحدى الهجمات قُتل.^(٤٥)

وفي حوادث سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) في ليلة الخميس ثالث محرم، نقب قوم من الشطار على دار المملكة فأفوضوا إلى حجرة الحرم وأخذوا منها شيئاً من الثياب ونذروهم فهربوا ورُتِبَ بعد ذلك حرس يطوفون حول الدار كل في كل ليلة.^(٤٦) وعندما أرادت السلطات أن تضع حداً لتحدي البرجي لها، قام الوزير البويهي بمطاردته وعهد إلى (محمد ابن النسوي) رئيس الشرطة بتلك المطاردة، وقلده النظر في المعونة ومنحه لقب الناصح، واستحجب وخلع عليه، فاستدعى جماعة من العيارين فأقامهم أعواناً، وأصحاب مسالح، ليُغري بقية العيارين بالتخلي عن البرجي، لكن ما أن قُتل أحد أصحاب النسوي حتى هرب هو نفسه وترك بغداد تحت سيطرة البرجي، وبلغ مداه، حتى ثار العامة بالخطيب عند خطبة الجمعة في جامع الرصافة، ومنعوه من إكمال خطبته، ورجموا القاضي (أبا الحسين العريف الخطيب)، وقالوا له: "إما أن

سيرة شعبية في التراث العربي، ونلخص مما سبق أن العيارين أُرهبوا بغداد بشطارتهم، وفرضوا سيطرتهم عليها، وداخلوا الشرطة كأعوان وأصحاب مصالح، وظهر منهم زعماء كبار، واستعان الأتراك بهم في بعض الأحيان في غزو الروم.^(٥٣)

ثالثاً: في العصر السلجوقي

كان لسياسة العنف والقسوة التي اتبعتها السلاجقة مع عامة الناس أثر واضح في ضعف حركة الشطار والعيارين في بداية الاحتلال السلجوقي، إذ كان الحكام السلاجقة يتعقبون العصاة والخارجين على النظام بشدة، وعلى ذلك الوجه نرى أخبار العيارين حتى عهد خلافة المستظهر بالله أبي العباس بن المفندي بأمر الله (٤٨٧ هـ - ٥١٢ هـ) وسلطنة ركن الدولة بركيارق بن ملكشاه (٤٨٧ هـ - ٤٩٨ هـ)، وفي ذلك الدور بدأ العيارين والشطار تحركهم، في شهر شعبان سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وزاد أمر العيارين ببغداد الغربية، وعظم خطرهم فأمر الخليفة صاحب الشرطة (كمال الدولة) بتأديبهم فأخذ جماعة من أعيانهم وطلب الباقين فهربوا.^(٥٤)

وفي سنة (٤٩٥ هـ / ١١٠١ م) تدخل العيارين لمنع إحدى الغارات من قبل السلاجقة، ومالوا على المغيرين فقتلوا أكثرهم، وغرست السياسة العنيفة للسلاجقة - تجاه العامة - الحقد في نفوسهم، والغضب في قلوبهم فكثرت الفتن بينهم في سنة (٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م) وكالعادة انتشر الشطار والعيارين خلال الفتن لمزاولة حرفتهم في السلب والنهب لدور الأغنياء.^(٥٥) وفي ثاني شهر ربيع الآخر سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م) توفي السلطان (بركيارق) وبوفاته انتهى عصر وحدة السلاجقة، وبدأ عصر انقسامهم، واختص بملك العراق أولاد وأحفاد السلطان غياث الدين محمد طبر ملكشاه الثاني (٤٩٨ هـ - ٥١١ هـ)، وفي هذا العصر أخذت أخبار العيارين تتراعى بقلة ولكن في قوة، وربما كانت كثيرة، وأُغفل تدوين معظمها بتوجيه من رجال الدولة لمؤرخي السلطة.^(٥٦)

كان للشُّطَّار والعَيَّارين في الفترة السلجوقية دور نشيط، وصارت في فترة من الفترات قوة يُحسب لها ألف حساب، وتحسنت مقاييسهم الأخلاقية كثيراً، وصارت الفتوة مثُلهم الأعلى، فلا نصل إلى أواخر الفترة السلجوقية، حتى نرى تنظيمات الفتوة هي السائدة والمتنشرة، وتنظيمات الفتوة ترتكز على القيم الدينية والخلقية من جهة وعلى الفروسية وما يتصل بها من جهة أخرى، وهي تنظيمات شعبية.^(٥٧) وتغير الحال في سنة (٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م) حيث بلغت الفتوة الشاطرة مبلغها منذ أوائل خلافة (المقتفي لأمر الله العباسي)، وعهد السلطان السلجوقي (مسعود بن ملكشاه)، وولاية الشريف (حسام الشرف)، فظهر أمر الفتى (ابن بكران العيَّار) في بغداد والعراق، وكثر أتباعه وصار يركب ظاهراً في جمع من أتباعه.^(٥٨) وقد خفَّت وطأة الفتیان العيارين بوفاة السلطان السلجوقي (مسعود) بهمدان سنة (٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م) واستقلال الخليفة (المقتفي لأمر الله) بالحكم في العراق، الذي أخذ ينتهز الفرصة، فيتقرب إلى هؤلاء الفتیان العيارين، ويدعوهم إلى الانضمام إليه،

تخاطب للبرجي وإلا فلا تخاطب لخليفة ولا لسلطان ولا لغيره"، وبلغ الأمر بسكان بغداد، أنهم لم يجزئوا على أن يلفظوا اسم البرجي الصريح، بل كانوا يكنونه بالقائد (أبي علي) وصارت له من الهيبة والنفوذ ما جعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره، وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسي والوزير البويهي.^(٥٩)

وذكر ابن الجوزي: "كبس قوم من الدُّعَّار المسجد الجامع ببرائنا، وأخذوا ما فيه من خُصُرٍ وسجادات وقلعوا شباهه الحديدي وزاد الاختلاط في هذه الأيام وعاد القتال بين العوام وكثرت العملات واجتاز سكران بالكرخ فضرب بالسيف رأس صبي فقتله ولم يجري في هذه الأشياء إنكار من السلطان لسقوط هيئته".^(٤٨) وثار أهل الكرخ بالعيارين وطلبوهم فهربوا، فكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم وراسلوا السلطان ليعاونهم عليهم، وكان سبب ذلك أن العيارين دخلوا ليلاً على أحد التجار فأخذوا ماله فتعصب له أهل سوقه، فرد العيارين بعض ما أخذوا، ثم كبسوا في ليلة دار (ابن الفلو الواعظ) بدار القطن من نهر طابق فأخذوا ماله.^(٤٩)

وخرج جماعة من القواد في طلب البرجي، فنزلوا الأجمة التي كان يأوي إليها وهي أجمة ذات قصب وماء كثير تمتد خمسة فراسخ، وفي وسطها تل قد جعله معقلاً ومنزلاً، فخرج عليهم البرجي وقال لهم: من العجب خروجكم إلي وأنا كل ليلة عندكم، وإن شئتم أن ترجعوا وأدخل عليكم فعلت، وإن شئتم أن تدخلوا إلي فافعلوا، فذكر أن قوماً منهم راسلوه وأقروا نفسه واروه أنهم يردُّون العسكر عنه.^(٥٠)

أصيب الشطار والعيارين بنكسة كبيرة سنة (٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م)، وذلك عندما وقع (البرجي) في براثن (قرواش) أمير بني عقل، في شرك نصبه له على ما يبدو (جلال الدولة البويهي)، حيث أن قرواشاً قبض على عامله على مدينة عكبر بشرقي دجلة في شمال بغداد، ويُدعى (ابن القلي) فجاء البرجي يتشفع في إطلاقه، لمودة كانت بينهما، فغدر به واعتقله وافتدى البرجي نفسه بمال كثير فأخذ قرواش الفدية وأغرقه بدل أن يطلق سراحه، وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجي لتفتيت حركة العيارين فأصدرت أمر الأمان لهم، ودعمته للتفاوض، وطلب منهم الانخراط في مؤسسات السلطة أو الخروج من البلد، فخرجوا مؤقتاً، ثم عادوا إلى نشاطهم واستهدفوا (محمد بن النسوي) الذي كان قد أُعيد إلى منصبه، فاقتحم مائة من العيارين داره وأحرقوها وأجبروه على الاستقالة.^(٥١)

وفي سنة (٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م) هاجم العيارين أبا محمد النسوي وجرحوه جراحات، وفي سنة (٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م) زادت الفتن بين المذاهب، وذلك لإصرار الشيعة على إظهار مذهبهم في تفضيل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وفي الآذان بجي على خير العمل، فانتشر العيارين وتسلطوا وجبوا الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه أرباب العمل، وكان مقدمهم (الطقطقي) و (علي الزبيق) ولحق ببغداد منهم الكثير من الشرور.^(٥٢) والزبيق هذا، هو صاحب أكبر

حيث كان يُدرك قوتهم وتأييد العامة لهم، واستطاع أن يجندهم في الجيش العباسي.

خاتمة

من خلال هذا العرض التاريخي يتبين لنا عدة نتائج مهمة:

- كانت هذه الحركات على تنظيم عالي، وهذه دلالة واضحة على أن الحكام في ذلك العصر كانوا ضعفاء في سياستهم الداخلية، وأن الجبهة الخارجية أو ما عُرف بـ "الثغور"، شغلهم عن قمع مثل هذه الحركات.
- وجود تأييد شعبي كبير لحركة الشُّطَّار والْعَيَّارين، مما يدل على أن أهل العراق قد عانوا من الحرمان، في فترات معينة من تاريخ الدولة العباسية.
- استعان بعض الخلفاء بالشُّطَّار والْعَيَّارين، خاصة في السياسة الداخلية، وأحياناً في الجبهة الخارجية، دليل على أن هؤلاء كانوا يتمتعون بالقوة في بعض الفترات التاريخية، وبالضعف في فترات أخرى.
- إن عمليات السلب والنهب والكبسات التي كان يقوم بها هؤلاء الشُّطَّار، قد أثرت في اقتصاد الدولة العباسية تأثيراً سلبياً، أدى إلى انتشار المجاعات في بعض الفترات.

الهوامش:

- (١) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت، ١٩٩٥) ص ١٤٢.
- (٢) الزبيدي، محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية (القاهرة، ١٨٨٨) ٤٣٤/٣.
- (٣) عبد المولى، محمد أحمد: العيارون والشطار البيغادة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية، ١٩٩٠) ص ٢٨.
- (٤) مهدي، عبد الحسين: محاضرات في تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي، كلية التربية (دم، دت) ص ٣٥، ٣٦.
- (٥) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ٣١.
- (٦) المرجع نفسه: ص ٣٤.
- (٧) علي، وفاء محمد: صفحات من تاريخ العباسيين، دار الفكر العربي (القاهرة، ١٩٧٧) ص ٤٩.
- (٨) الخضري، محمد بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية، مؤسسة المختار (القاهرة، ٢٠٠٣) ص ١٦١.
- (٩) وفاء علي: المرجع السابق، ص ٤٩.
- (١٠) الرفاعي، أنور: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر (القاهرة، ١٩٧٣) ص ١٩٠.
- (١١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، ١٩٨٣) ١٥٨/٥.
- (١٢) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف (القاهرة، دت) ٤٤٨/٨.
- (١٣) نصر، علي منصور: العيارون والشطار في العصر العباسي، مجلة المورخ العربي، العدد السادس (القاهرة، ١٩٩٨) ٢٦٥/١.
- (١٤) الأربلي، عبد الرحمن سنبط: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، مكتبة المثنى (بغداد، دت) ص ١٨٣. كذلك، مؤلف مجهول:

- (١٥) الطبري: المصدر السابق، ٤٥٨/٨. ابن الأثير: المصدر السابق، ١٥٩/٥.
- (١٦) المصدر نفسه: ٤٥٨/٨.
- (١٧) وفاء علي: المرجع السابق، ص ٥١، ٥٢.
- (١٨) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (١٩) محمد الخضري: المرجع السابق، ص ١٧٠.
- (٢٠) محمود، حسن أحمد، وزميله: العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي (القاهرة، دت) ص ٢٣٩.
- (٢١) الطبري: المصدر السابق، ٤٧٠/٨. كذلك، أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية (دم، دت) ١/٢٢.
- (٢٢) حسن محمود، وزميله: المرجع السابق، ص ٢٣٩.
- (٢٣) محمد الخضري: المرجع السابق، ص ١٧١.
- (٢٤) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٣.
- (٢٥) محمد عبد المنعم: المرجع السابق، ص ٧٥.
- (٢٦) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٦٢.
- (٢٧) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ٧٩.
- (٢٨) متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد أبوريدة، الدار التونسية (تونس، ١٩٨٦) ١٩٣/٢.
- (٢٩) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٦.
- (٣٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٥.
- (٣١) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٣٢) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٥.
- (٣٣) عبد الحسين: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٣٤) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة، دت) ١٠٧/٤. كذلك، الياضي عبد الله بن أسعد بن علي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلي للمطبوعات (بيروت، ١٩٧٠) ٣٨٠/٢.
- (٣٥) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (٣٦) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٣٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ١٦٧/٧.
- (٣٨) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
- (٣٩) آدم متز: المرجع السابق، ص ٨١٤.
- (٤٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- (٤١) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١١٧.
- (٤٢) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- (٤٣) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف (حيدرآباد، ١٩٧٥) ٤٧/٨.
- (٤٤) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٨.
- (٤٥) ابن الجوزي: المصدر السابق، ٥٤/٨.
- (٤٦) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٩.
- (٤٧) ابن الجوزي: المصدر السابق، ٥٥/٨.
- (٤٨) المصدر نفسه: ٦٢/٨.
- (٤٩) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٤١.
- (٥٠) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٧٩.
- (٥١) عبد الحسين مهدي: المرجع السابق، ص ٥٤.
- (٥٢) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١٢٦.
- (٥٣) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٨١.
- (٥٤) محمد عبد المولى: المرجع السابق، ص ١٣٠.
- (٥٥) المرجع نفسه: ص ١٣١.
- (٥٦) المرجع نفسه: ص ١٣٣.
- (٥٧) علي نصر: المرجع السابق، ص ٢٨٥.
- (٥٨) المرجع نفسه: ص ٢٨٦.